

إيلاف قرشي

مدرسات حول عوامل السيادة الملكية قبل الإسلام

ر. صالح دراركة
الجامعة الاردنية

تحاول هذه الدراسة التعرف على عوامل السيادة الملكية قبل الاسلام مع التركيز على دور الايلاف ضمن هذا الاطار ، اذ من الصعب الحديث عن الايلاف بمعزل عن العوامل الاخرى لما بين هذه العوامل من تداخل .

يحتل الايلاف بين العوامل الملكية أهمية خاصة ، ذلك أن الايلاف اختراع قرشي هيا لمكة القوة المادية اللازمة . ورغم هذه الأهمية لم يحظ من الدارسين بالاهتمام الذي يستحقه ، ففي الغرب لم تدرس هذه الظاهرة التاريخية دراسة وافية اللهم الا ما كان من اشارات مفيدة ، أشار إليها ج. كستر في معرض حديثه عن مكة والحيرة وصلتهما بالقبائل العربية (١) . وما كتبه لامانس (٢) عن الايلاف لا يعط الصورة المطلوبة . وحاول محمد حميد الله (٣) تلافى هذا النقص ، ومع اعترافه بجدارة الموضوع بالبحث ولومه الباحثين الغربيين على تقصيرهم ، لم يصل الى تحقيق الغرض المطلوب الذي يشفي غلة الباحث .

وفي المشرق العربي ظهرت هنا وهناك مقالات حول الايلاف (٤) توجهت وجهات مختلفة ، وكان في هذه المقالات الكثير من الفائدة ، الا أن الحاجة لدراسة جادة للايلاف ما زالت قائمة .

الايلاف عند المفسرين واللغويين

قبل أن نمضي في استعراض نشأة الايلاف ودوره في السيادة المكية علينا أن نعرف شيئاً عن معاني الايلاف .

اختلف القراء في قراءة « الايلاف » ، فمنهم من قرأها « لالاف » بغير ياء بعد الهمزة ، ومنهم من قرأها بياء ساكنة من غير همزة « ليلاف » ، ومنهم من قرأها بهمزتين مخففتين بكسر الاولى وتسكين الثانية على وزن « لعلان » ، وقرأها الباقون بهمزة بعدها ياء ساكنة مثل : « ليعلاف » (٥) .

ويرى ابن جرير الطبري أن الصواب من القراءة : « لايلاف قريش ايلافهم » بآثبات الياء فيهما بعد الهمزة من آلفت الشيء أولفه ايلافاً ، لاجتماع الحجة من القراء عليه ، وللعرب في ذلك لفتان : آلفت ، وآلفت (٦) .

لقد أورد المفسرون واللغويون معاني متعددة للأيلاف ، نورد المشهور منها :

آلفت : وتعني المؤالفة (٧) .

آلفت : من الإلف والتأليف أي الجمع والتقريب (٨) .

وقيل انها مشتقة من الالف أي الاعتياد على الرحلتين أو مؤالفة الإقامة والاجتماع بمكة في جوار الحرم (٩) .

وقيل في معاني الايلاف : الأجرة ، فيؤلف : يجير ، ولذلك سمي أبناء عبد مناف ، بالمجيرين كما سموا بالالاف ، وهم هاشم ، وعبد شمس والمطلب ونوفل (١٠) .

وذهب بعضهم الى أن الايلاف الوارد ذكره في القرآن الكريم يعني : الأحلاف والاتفاقات والعهود ، وبالتوسع في المصطلح يعني الميثاق (١١) . وفي رواية لابن عباس انها تعني : العهد والذمام (١٢) ، وزاد أصحاب المعجم الوسيط على ما تقدم القول : انها الامان والعهد يؤخذ لتأمين خروج التجار من أرض الى أرض (١٣) . ويرى بعض الباحثين المحدثين انها تعني الحماية أي الحلف الذي يضمن الامن (١٤) .

ان هذا التفاوت في معاني الأيلاف انما يرجع الى التفاوت في فهم المعنى العام

للأيلاف كظاهرة عملية لقريش ، أو فهم المعاني اللفظية من حيث علاقتها بنعمة الاستقرار والاجتماع في حرم الله ، والاعتقاد على القيام بالرحلات التجارية بأمن وطمأنينة بفضل الاحلاف أو العصم أو الحبال (١٥) التي أخذها سادة قريش من زعماء الدول المجاورة ، ومن رؤساء القبائل النازلة على طرق القوافل . ويتضح من خلال هذه الدراسة المعنى العملي المقصود بالأيلاف .



ان ظاهرة الايلاف وليدة عوامل طبيعية وتاريخية ، فمن الناحية الطبيعية كانت مكة ولا تزال منطقة صحراوية لا يمكن لأهلها الاعتماد على الزراعة في عيشهم ، وذلك بعكس يثرب ، فلا بد والحالة هذه من الاعتماد على التجارة أو أية حرفة أخرى لتأمين معاشهم . أما ما يتعلق بالعوامل التاريخية فيقصد بها نشوء مكة حول ماء زمزم وتطورها وعلاقة الكعبة بذلك . فموقع مكة على الطرق التجارية وقداستها باحتضانها أول بيت أقيم للناس ، وما نشأ عنه من تنظيمات جعلها عرضة لاطماع القبائل المتجولة في المنطقة .

فقد استوطنتها جرحم وتقاضت رسوما مقابل الدخول إليها (١٦) ، وقصدها الزوار من كل فج ، وفيهم الملك والامير والشيخ ، ومعهم الهدايا والقرابين (١٧) . ولعل هذه الزيارات كانت المقدمة التي قامت عليها علاقات مكة الخارجية فيما بعد . وبعد جرحم استولت عليها خزاعة . وبقيت خزاعة سيدة المكان حتى أخرجتها قريش بقيادة قصي بن كلاب (١٨) . وتعتبر فترة قصي المكية الأساس الذي قامت عليه عظمة حفيده هاشم بن عبد مناف صاحب الأيلاف . ولقد نسبت التنظيمات المشهورة في مكة ابتداء لقصي مثل : الندوة ، والسدانة والسقاية والحجاجة ، ثم تبع ذلك نظام الحمس ، ولا شك أن لهذه التنظيمات غايات اقتصادية ، ويفهم ذلك من الهدايا والرسوم التي كانت تقدم أو تجبى من الزائرين أو العابرين لمكة ، بالإضافة الى دور العوامل السابقة في احترام القبائل العربية لمكة وسكانها قريش ، وهذه العلاقة بدورها مهدت لنجاح قريش في تأمين سير القوافل التجارية .

وكان لنظام الحمس (١٩) اثره في تمتين الروابط القرشية مع القبائل العربية الاخرى واطهار قريش بمظهر متميز في بلاد العرب . وشايح قريش في تحمسها لطقوسها وتماييزها فريق من العرب يرون ما تراه قريش ، بل ان بعضهم أعلن استعدادهم للدود عنها وعن طقوسها ، وتطوع للدفاع عن ذلك ، كما فعل الفريق الذي تزعمه صلصل بن أوس من بني عمرو بن تميم (٢٠) . ولما قررت غطفان أن تنشئ حرما كحرم مكة ، هاجمهم زهير بن جناب الكلبي وحطم حرهم (٢١) .

ان تضايفر مجموعة العوامل السابقة وما نتج عنها جعل من مكة محور حركة بشرية تمخضت عن حركة تجارية محلية في البداية ، تطورت مع الزمن وبفعل الظروف الدولية المواتية أيضاً . فقد خلف تجار قريش تجار اليمن في الوساطة التجارية العالمية بعد احتلال الاحباش لليمن ، واستفادت قريش من العلاقات العدائية بين الفرس والروم فنهجت نهجا حياديا في تعاملها مع المعسكرين ، الامر الذي مكنها من الاتجار مع العراق والشام (٢٢) .

ولا يغيب عن الذهن انه لم يكن يسمح للتجار الاجانب بالدخول داخل الامبراطوريتين لان الفرس والروم لم يكونوا يثقون بهم ، لذلك اقتصر دخول تجار مكة على اسواق معينة ، مثل الحيرة وبصرى وغزة على اطراف الدولتين (٢٣) .

ولذلك كان على التجار العرب ان يقدموا تضحيات كثيرة ، كدفع الضرائب الباهظة والمستمرة ، والضرائب الحدودية في ارض القبائل ، كما كان عليهم احيانا ان يسلموا الرهائن . وفرضت مكة بدورها ضرائب ورسوم مماثلة (٢٤) .

لقد استدعت هذه الاوضاع ان يعمل زعماء قريش على تأمين وصول قوافلهم بأمان الى كل الاسواق العالمية الممكنة ، وبخاصة تلك المحيطة بجزيرة العرب كسورية والعراق والحبشة ومصر . وقد تحقق لقريش هذا الحلم على يد هاشم بن عبد مناف الذي كان عهده نقطة تحول في تاريخ مكة . ولعل عظمة قريش الدينية والاجتماعية والاقتصادية التي تحققت جعلت من عمرو بن مناف « هاشم » مثلاً أعلى افاضت الروايات في ذكر شمائله ، وبهمنا واحدة من هذه الشمائل، وهي «الايلاف» .

تذكر المصادر العربية ان سنوات من الجذب اصاب مكة ، ذهبت بالاموال . فخرج هاشم الى الشام واظهر من الكرم وحسن المعاملة ما افاضت به اخباره حتى بلغت قيصر - ولعله أحد حكام الروم في سورية - فأمر باحضاره واعجبته صورة هاشم وحديثه فاظهر له ودا ومحبة . ولما ايقن هاشم من ود الحاكم الروماني ، اخبره ان قومه قريش هم تجار العرب ، وطلب اليه ان يكتب لهم امانا بدخول بلاد ، يبيعون فيها ادم الحجاز وثيابها فيكون أرخص بيعا للروم ، فكتب الحاكم الروماني امانا لمن يقدم من التجار القرشيين الى بلاده . واقبل هاشم بذلك الكتاب ، وجعل كلما مر بحي من العرب بطريق الشام يأخذ من اشرافهم ايلافا . والايلاف ان يأمنوا عندهم في ارضهم بغير حلف ، وانما هو امان الطريق (٢٥) . وكانت قوافل التجار قبل ذلك تتخفر بالحرس والأدلاء من القبائل المجاورة ، وكان هؤلاء بدورهم أدلاء للقوافل يعرفون مواقع الآبار والعيون ، ويتقاضون مقابل خدمتهم اجورا يتفق عليها (٢٦) .

وبحسب الروايات العربية يكون هاشم بن عبد مناف أول من أخذ الأيلاف ، ثم أخذه المطلب ثم عبد شمس ثم نوفل أصغرهم (٢٧) .

أخذ أبناء عبد مناف الأيلاف من رؤساء القبائل لأسباب منها ، أن ذؤبان العرب وصعاليك الأعراب وأصحاب الغارات وظلاب الغوائل كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدرا ، كبنى طيء وخثعم وقضاعة ، وسائر العرب يحجون للبيت ويدينون بالحرمة له (٢٨) . ومنها أن الأساليب السابقة للأيلاف لم تكن كافية للحفاظ على أمن القوافل . وتطلق المصادر العربية على الأمان الذي أخذه هاشم من ملك الروم وأشراف قبائل العرب إيلافا تارة ، وتارة أخرى عهدا أو ميثاقا أو جبلا أو عصما (٢٩) .

يذكر أبو علي القالي بوضوح أن هاشما أخذ عهدا من قيصر وإيلافا من شيوخ القبائل ، ويعني بإيلاف القبائل أن يأمن التجار في أرضهم بغير حلف (٣٠) . والعهود هي المعاهدات والاتفاقيات ، إذ إن رعاية التجارة المكينة فيها كسب لقريش التجار وللدول المعاهدة ، ولو لم يكن فيها كسب للدول المعاهدة لما سمحت للتجار بدخول بلادها .

وتأليف القبائل عملية ترويض كبيرة تتطلب جهدا وخبرة طويلة . فقريش التي خبرت طبائع الناس - وبخاصة طبائع البدوي - من خلال الاحتكاك الدائم في المواسم الدينية والاقتصادية ، هي وحدها القادرة على ابتكار الأسلوب الأفضل للتعامل معهم ، وقد نجح أبناء عبد مناف في تأليف القبائل على طول الطرق التجارية نحو الشام واليمن والعراق ، وبعد أن كانت هذه القبائل تفسر على القوافل وتنهب ما تحمله ، أصبحت عنصر الأمان ، تجوز بالقوافل حتى تبلغها مأمنا .

ولم يكن هذا الأمان بدون مقابل « أي غير مشروط كما ذهب بعض الباحثين المحدثين » (٣١) فقد أشركت قريش القبائل في تجارتها ، فحملت لرؤسائها البضائع وكفنتهم حملانها ، وأدت اليهم رؤوس أموالهم وربحهم . وحقق هاشم بهذا الأسلوب العملي الأمان للقوافل ، واستفاد رؤساء القبائل بأشراكهم في المشاريع التجارية المكينة « فكان المقيم رابحا والمسافر محفوظا كما يقول الجاحظ » (٣٢) .

وكان تحقيق الأمان مطلباً عزيزاً في منطقة الحجاز وبلاد العرب ، وتحقق هذا المطلب بالإيلاف ، فانطلقت السفارات التجارية في كل اتجاه وازداد حجم القوافل وتنوعت السلع ، كل ذلك بفضل الأمان الذي أحرزه المكيون للتجار . فحق لله سبحانه وتعالى أن يمن على قريش بقوله : « أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء » (٣٣) .

وتذكر المصادر أن اخوة هاشم فعلوا مثله بأخذ عهود الامان لتجارة قومهم من دول أخرى غير سورية، فأخذ عبد شمس بن عبد مناف عهداً من صاحب الحبشة، وأخذ المطلب بن عبد مناف عهداً من ملوك اليمن ، وأخذ نوفل بن عبد مناف عهداً من ملوك العراق . وكان كل واحد منهم يأخذ الايلاف من رؤساء القبائل ما بين مكة والجهة التي أخذ العهد من حاكمها (٢٤) .

يسمى البلاذري (٢٥) عهود أبناء عبد مناف بالعصم ، ومعناها المنع ، وعصمه تعني منعه مما يوبقه (٢٦) . ويسمى الطبري (٢٧) بدوره هذه العهود المأخوذة من الملوك والرؤساء : حبالا ، ومفردها حبل : وهو الرباط ، وجمعها أحبل وأحبال وحبال وحبول ، والحبل : العهد والذمة والامان (٢٨) . وبعض المصادر تسمى هذا حلفاً أو ميثاقاً ، والحلف العهد يكون بين القوم ، وحالفه أي عاهده ، والميثاق (٢٩) : العهد . والعهد كما هو واضح يفيد المعاني السابقة أي الميثاق والامان ، واليمين يستوثق بها من الطرف الثاني .

والمعاني السابقة التي استخدمتها المصادر العربية ، تفيد عقد اتفاقيات بين أبناء عبد مناف ورؤساء الدول التي ذكرناها سابقاً . وذكرت بعض المصادر أن أبناء عبد مناف أخذوا العهود من حكام مصر وبلغت تجارتهم انقرة (٤٠) . وتحقق هذه الاتفاقيات منفعة متبادلة تشبه في غاياتها وأهدافها المعاهدات بين الدول في العصر الحاضر .

أما ايلاف القبائل فيعتمد بالدرجة الاولى على خبرة القرشيين بالطبائع البدوية وتأنيسها وتأليفها ، بأساليب تحمل البدوي على التخلي عن كثير من الطبائع المكتسبة ، أي أن الايلاف عملية تأليف واعتياد على وضع جديد ، نجح أبناء عبد مناف في ايجاده حتى أصبح لدى القرشيين والقبائل الاخرى عادة يصعب الخروج عليها . وقد دعي أبناء عبد مناف بالمؤلفين وأصبح التأليف فضيلة ومنقبة ، فهذا الجاحظ يقول : « خير الناس ألفهم للناس » (٤١) ولعل هناك علاقة ما بين هذا القول وفعل قريش في الايلاف ، ومن ثم في السياسات القرشية المتبعة ، وربما كانت منها سياسة المؤلفة قلوبهم فيما بعد . ويبدو من حديث هاشم لقيصر أن الجلود والثياب الحجازية هي السلع المهمة في التجارة المكية مع سورية ، ويبدو أيضاً أنه حتى عهد هاشم ابن عبد مناف كانت التجار نشاطاً فردياً ، واستمر هذا النشاط الفردي ولم ينقطع حتى بداية العهد الاسلامي ، وذكر عدد من الصحابة في عداد من كان يقوم بتجارته الخاصة .

فقد اشتهر عبد الله بن ابي ربيعة بالتجارة بالعطر اليمني ، وكان يبعث الى أمه

في مكة من هذا العطر حيث كانت بدورها تبعه نقدا او دينا ، واذا باعت دينا كتبت مقدار الدين في كتاب (٤٢) . وكان دحية بن خليفة الكلبي يتجر مع بلاد الشام بالزيت والطعام (٤٣) ، وكان حكيم بن حزام يتجر بالبر الى اليمن وبلاد الشام ، وعمرو بن العاص كان تاجر ادم وعطر يختلف الى مصر (٤٤) . وبعد ايلاف هاشم وأخذه عهد الامان من حاكم سورية ، انطلقت المشاريع التجارية الكبرى من مكة ، ونظمت الرحلات في الصيف والشتاء . وقد يستدل من طلب هاشم لآمان قيصر الروم ان تجار قريش كانوا يتعرضون لمضايقات من قبل رجال الحكم الروماني . ولعل هؤلاء التجار كانوا يعالجون مشاكل رجال القبائل البدوية بطرقهم الخاصة ، ولم تكن هذه المعالجة سهلة ، فربما كانت تكلفهم غاليا ، ولا تكون بعد ذلك النتائج مضمونة ، وبقي هذا الحال حتى نظم أبناء عبد مناف العلاقات التجارية مع رؤساء القبائل بشكل حاسم ودائم .

وذكر ابن سعد ان قيصر كتب مع كتاب آمانه لهاشم كتابا آخر للنجاشي طلب اليه فيه ان يأذن لتجار قريش بدخول بلاده (٤٥) .

والراجح من خلال مقارنة الروايات حول ايلاف هاشم ، ان سفارات أبناء عبد مناف الى البلدان المذكورة آنفا ، انما كانت بعد عودة هاشم من سورية . ويرجح ذلك قول بعض المصادر بأن أخوة هاشم انما قاموا بعملهم - أي أخذ عهود الامان - بعد وفاة هاشم (٤٦) . كما ان هاشما لم يطلب مقابلة الحاكم الروماني لتحقيق هذا الغرض وانما جاء اللقاء مع الحاكم الروماني محظ صدفة ، وان هاشما استغل هذه المقابلة بذكاء . واغلب الظن ان هذا التحول التجاري الكبير انما حصل في مطلع القرن السادس الميلادي ، لان هاشما - على الاغلب - توفي في هذه الفترة ، بدليل تصريح بعض المصادر بأن هاشما كان معاصرا لقباذ الملك الفارسي ، والهارث ابن عمرو الكندي اللذين عاشا في مطلع القرن السادس الميلادي (٤٧) . ومن الحوادث الثابتة في التاريخ لقاء عبد المطلب لأبرهة الحبشي عام الفيل ، وهو العام الذي ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، واتفقت المصادر ان هذا الحدث الكبير كان سنة ٥٧٠ م ، وتذكر المصادر ان عبد المطلب كان حينذاك شيخا وقورا ، أي ان عمره ما بين ٦٠ - ٨٠ سنة ، وهذا يرجح صواب ما ذهبنا اليه في تحديد تاريخ ايلاف هاشم في مطلع القرن السادس الميلادي (٤٨) .

وظاهرة الايلاف ابتكار قرشي نقل تجار مكة من تجار محليين الى وسطاء عالميين وبسياسة متوازنة وواضحة في محيط العلاقات الدولية ، وتنظيم نقابي مكّي ، ومع القبائل العربية في الشمال أولا ، ثم تطورت لتضم معظم القبائل العربية داخل الجزيرة وخارجها (٤٩) . ولم يكن بالامكان نجاح هذا النظام لولا الاصلاحات التي بدأها قصي بن كلاب .

ومما يجدر ذكره أن هاشما مات بفترة والمطلب مات بردمان من أرض اليمن ، ونوفل مات بسلمان جهات فارس ، ولم يمض في مكة سوى عبد شمس بن عبد مناف (٥٠) . مما يشير الى توسع دائرة التجارة المكية في عهد أبناء عبد مناف . ومما ساعد في توسع دائرة التجارة المكية أن فارس كانت تفرض الضرائب المرتفعة لمرور الحرير والتوابل أيام السلم ، وينقطع مرور السلع أيام الحرب فلا يبقى أمام تجار هذه السلع الا الطريق الغربي الذي يصل اليمن بسورية برا (كان يطلق على الطريق الجنوبية المحاذية للبحر العربي ، طريق البخور ، وتتصل هذه بالطريق السابقة) (٥١) .

وقد أدرك المكيون دورهم ازاء هذا الطريق فاستخدموه بكفاية عالية وفق سياسة الحياد التي اتبعوها ، ووفق مصالح متبادلة مع الدول المجاورة . وحرص المكيون على مبدأ الادارة الجماعية ممثلة بالمالأ (مجلس دار الندوة) الذي قاد قريش في المجالات الاقتصادية والدينية والاجتماعية والسياسية .

وكانت قريش تعلق على ايلاف القبائل أهمية أكبر مما تعلقه على عهود الدول . لذلك نهجت سياسة ترضية مع أبناء القبائل المقيمة على طول الطرق التجارية . ولعل في قصة أبي ذر الغفاري يوم اعتدى عليه القرشيون لاعلان اسلامه ، ما يوضح هذه الحقيقة ، فقد صاح العباس بن عبد المطلب بالمعتدين على أبي ذر قائلا : « ويلكم الستم تعلمون انه من غفار وانه من طريق تجارتكم الى الشام » فترك القرشيون أبا ذر وشأنه لما سمعوا مقالة العباس (٥٢) .

لقد كافح القرشيون طويلا ليخرجوا من محيط التجارة المحلية ، الى دائرة التجارة العالمية ، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحوا أساندة في فن التجارة يضرب ببراعتهم الامثال ، ويستدلون ذلك من قول عبد الرحمن بن عوف : « لو رفعت حجرا لرجوت أن أصيب تحته ذهباً وفضة » (٥٣) . واتخذ القرشيون على الطرق التجارية المحطات والبيوت لا يدخلها أحد غيرهم ، ويحلون بها وهم في طريقهم الى اليمن والشام والعراق . فقد ذكرها الطبري في تفسيره للآية : « ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » (٥٤) .

وساعد حلف قريش مع تميم كبرى القبائل العربية شمال شرق مكة على تأمين سير القوافل القرشية ، ذلك أن تميما من أكبر التجمعات القبلية الشمالية ، تمتد منازلها شرقا من وادي الرمة - عقدة المواصلات شمال الجزيرة - وحتى وادي الباطن عند الطرف الشمالي الغربي من خليج العرب . وهذا يعني أن بطون تميم كانت تتحكم بطرق المواصلات التجارية ما بين مكة والحيرة (٥٥) . ومما زاد من أهمية

تميم في محيط العلاقات السياسية والاقتصادية أن الردافة - منصب ينوب فيه الردف عن ملك الحيرة - في الحيرة كانت لآحد بطون تميم (٥٦) . وهكذا نجد أن تميما أصبحت شريكة إدارية في الحيرة ومكة ، ولو أن طبيعة العلاقات بين تميم وقريش كانت تقوم على أسس أقوى وأمتن . ونظرا لأهمية تميم أصبحت القبائل في المنطقة تطلب ودها وتعقد المحالفات معها .

وكانت تميم على حلف مع قبيلة كلب ، أخطر القبائل العربية على تجارة قريش ، لأن مواطنها انتشرت ما بين أعالي الحجاز إلى بادية الشام (٥٧) . يبدو أن كلبا ارتبطت بقريش وحافظت على هذا الارتباط ، لأننا نجد كلبا تقف في وجه الدعوة الإسلامية وتحاول التضييق على الرسول (ص) اقتصاديا ، عن طريق التعرض للتجار الأنباط الذين كانوا يحملون الدقيق والزيت للمدينة ، والحق الأذى بهم لمنعهم من إيصال بضائعهم إلى المدينة ، مما اضطر الرسول (ص) أن يجهز حملة في السنة الخامسة للهجرة لتأديبهم (٥٨) . كذلك كان تحالف تميم مع أسد وطى يخدم التجارة القرشية ، إذ تمكنت قريش من إرسال قوافلها آمنة في منطقة مكة - الحزن (٥٩) ونحو دومة الجندل (٦٠) إلى العراق .

وقد أدركت قريش أهمية تميم في المعادلة القبلية فأشركتها في الإدارة المكية ومنحتها بعض امتيازاتها ، كإشراكها في الإشراف على الإجازة والإفاضة ، كما أسند لتمييم دور الحكومة في سوق عكاظ (٦١) . وكانت قريش حليفة قديمة لبني كنانة وبني بكر ، كما كانت على علاقات ودية مع القبائل الضاربة على جنبات الطريق التجاري نحو الشمال ، مثل جهينة ومزينة وغطفان . وكانت غطفان مع أسد حليفين ، وأسد مع تميم ، وتمرير مع قريش ، وكذا أشجع وسليم وبني أسد ، وكان لها مع هذه القبائل حلفاء يعيشون في مكة ويعتبرون أنفسهم من القبيلة القرشية جريا على النظام القبلي (٦٢) . وأقامت غطفان وهوازن وهلال محالفات مع إشراف قريش أساسها العلاقات الاقتصادية (٦٣) . كذلك كانت قبائل عامر بن صعصعة تنزل بين ديار هوازن وسليم وثقيف . وكانت ثقيف على صلة دائمة بقريش ، إذ إن الطائف كانت مصيف رجال مكة الذين يملكون فيها الحدائق والأطيان ، وكانت خزاعة في مر الظهران (٦٤) ولها علاقة مماثلة مع قريش (٦٥) .

وكان لقبيلة عذرة صلات قديمة مع قريش لا بد وأن توطدت بالآلاف ، فكان لعذرة حلف مع جهينة ، جعل الأخيرة تحترم المصالح المكية وتسهل مرور القوافل التجارية في منطقة المدينة ، ويمكن القول نفسه على قبائل بلي وبقيّة بطون قضاة النازلة على طول الطريق التجاري من مكة إلى الشام (٦٦) .

نظرت قريش الى طريق العراق بأهمية لا تقل عن طريق الشام ، لصلة هذا الطريق بطريق الحرير القديم ، حيث كان التجار العرب المكيون يحصلون على حرير الصين وتوابل الهند . وكان الجزء الشرقي من هذا الطريق تحت النفوذ الفارسي . بينما كان الجزء الغربي خارج هذا النفوذ . وحاول الفرس مرارا السيطرة على هذا الطريق الى مكة ، ولعل حادثة البراض وقيام حرب الفجار كانت من المحاولات لتحقيق هذا الغرض ، علاوة على المحاولات الاخرى التي قامت بها فارس للسيطرة على بلاد العرب بعامه والطريق التجاري الى مكة بخاصة (٦٧) . وكذلك استمر الروم في محاولاتهم للسيطرة على الطريق التجاري الغربي بين اليمن والشام عبر الحجاز (٦٨) .

وكانت بطون جذام تنزل على طول الطريق التجاري بين الحجاز والشام ومصر ، ولم تذكر المصادر أن جذاما ناصبت القوافل القرشية العداء . وقد حالف بعض رجال قبيلة سليم زعماء مكة واستغلوا معا مناجم المعادن الواقعة في ديار بني سليم (٦٩) . وكانت تنزل مع سليم قبيلة هوازن القوية ، وكان لها حلف مع ثقيف ، كما كانت سليم على صلات حسنة مع يهود يثرب الذين كانت صلاتهم وثيقة بقريش (٧٠) .

وحول مكة وجهات البحر كانت تنزل بطون كنانة مثل : القين وغفار وبكر وبلعارث ومدلج وضمرة بن بكر وليث بن بكر والدليل بن بكر ، وذلك في المنطقة ما بين مواطن هذيل وأسد بن مدركة ، وهذه البطون على صلة قوية بقريش بحكم الانتماء المشترك الى كنانة مثل بني عامر بن لؤي ، وبني فهر (٧١) .

ومن الجدير ذكره أن قريش الظواهر كان لها دورها في حماية المصالح المكية فكانت تغزو وتغير دفاعا عن قريش البطاح ، التي كانت تسميهم «الضب» للزوم الحرم ، ودخل قسم منهم مكة مثل بني حسل بن عامر ، وصاروا مع قريش البطاح وهم رهط سهيل بن عمرو واخوته . فأما من دخل في العرب من قريش فليسوا من هؤلاء . وتفخر قريش الظواهر من قريش البطاح لظهورهم للعدو ولقائهم المناسر « طلائع الجيش » (٧٢) ، وإلى الجنوب من مكة كانت تتناثر قبائل عدة على طول الطريق الى اليمن ، ففي تبالة تنزل خثعم ، وفي نجران بنو الحارث بن كعب . وكان لمكة في هذه المواطن عيون كثيرة (٧٣) كما كانت هذه القبائل ترتبط بعلاقات حسنة مع قريش ، وكانت مراكب التجار ترسو في ميناء الجار حاملة الطعام من مصر الى الحجاز (٧٤) . وكان لقريش لأغراض الامن محالفات عسكرية مع القبائل كالقارة والحياء والمصطلق وبني الحارث بن كنانة ، لكي تعاون قريش في الحروب اذا داهمتها . وسمي هؤلاء الإحلاف « بالاحابيش » (٧٥) .

وبحكم موقع مكة ودورها التجاري وتوسطها القبائل العربية أصبحت سوقا دائمة للتبادل التجاري ، تحصل القبائل القريبة منها على حاجياتها (٧٦) ، هذا علاوة على سيطرة مكة على الاسواق الثلاثة التي تقوم قربها : عكاظ ومجنة وذو المجاز ، كما كان لها مراكزها التجارية في بصرى وأذرعات على طريق الشام (٧٧) .

وعلاوة على المصالح الاقتصادية المشتركة بين قريش والقبائل ، فقد امنت قريش في تعزيز هذه الروابط عن طريق التزاوج مع هذه القبائل . وتشير جريدة النساء التميميات اللواتي تزوجن رجالا من أسر قرشية شريفة الى هذه السياسة القرشية بوضوح (٧٨) . وتأثر شيوخ القبائل بقريش وأخذوا يشاركون في الرحلات التجارية ويتفخرون بالاسفار وزيارة البلدان ودخول المدن والارياف ومقابلة الملوك والامراء (٧٩) . وقد ارتقت حرفة التجارة في نظر العرب واعتبرت من أشرف المهن ، وأصبحت قريش بتجاريتها تضارع بشهرتها في المجال الدولي شهرة حمير وفارس والحبشة . ففي رواية أنه وجد مكتوبا على بعض الآثار : « لمن ملك ذمار ، لحمير الاخيار ، لمن ملك ذمار ، للحبشة الاشرار ، لمن ملك ذمار لفارس الاحرار ، لمن ملك ذمار لقريش التجار » (٨٠) .

كانت مكة ملتقى الطرق البرية العالمية ، وقد استعملت هذه الطرق وجلبت من مختلف الاطراف السلع التجارية المطلوبة ، فعرفت طريق الهند والصين ، وحصلت من سوق الصين الرئيسي في « سرنديب » على الحرير وخشب الصندل كما جلبت من الهند التوابل ، وكانت هذه السلع أكثر ما تباع لسكان الامبراطورية الرومانية ، ولذلك كان الروم يحرصون على ضمان وصولها اليهم ، كما كانت منتوجات الصين والهند تصل بلاد العرب ثم الامبراطورية الرومانية عن طريق البحر من سيلان عبر المحيط الهندي الى السواحل الغربية للبحر الاحمر . وقد ظل هذا الطريق اiban العصور المتوالية متصلا بالتجارة المصرية ، خاصة في عصر النفوذ الروماني حيث كان وسيلة الاتصال الأكثر أهمية بين الشرق والغرب وذلك حتى بداية القرن السادس الميلادي (٨١) .

وكان النشاط التجاري يتحول من طريق الى آخر حسب تطور الاحوال السياسية في المنطقة التي غلب عليها الصراع بين الفرس والروم بغية توسيع رقعة النفوذ لتشمل فيما تشمل بلاد العرب ، ومن ثم السيطرة على محاور المواصلات العالمية لضمان وصول السلع المطلوبة . ومما زاد هذا الصراع ضراوة أن الفرس كانوا يفرضون على السلع المارة ببلادهم ضرائب باهظة ، وكان الرومان يشترون هذه السلع بأثمان عالية لأن التجار يضيفون هذه الضرائب الى أسعار السلع .

وحاول الرومان تركيز طرق المواصلات التجارية بطريقين الاول : طريق الفرات حيث كانت السفن القادمة من الشرق عبر المحيط الهادي والخليج العربي تفرغ حمولتها عند نهاية هذا الخليج ثم تحمل برا عبر الطريق البرية داخل سورية والبحر الابيض المتوسط ومصر ، وقد قامت على هذا الطرق محطات تحولت مع الزمن الى مدن مزدهرة مثل الحيرة والبتراء وتدمر . وقد ازدهر هذا الطريق في الفترة السابقة على ازدهار التجارة المكية أي حتى مطلع القرن السادس الميلادي تقريبا (٨٢) .

وتضاءلت أهمية هذا الطريق بعد انفجار الصراع بين الدولتين الساسانية والرومانية ، فأخذ الرومان يبحثون عن بديل له ، وتعاونوا مع الاحباش لتحقيق هذه الغاية ، فكان من محاولات الاحباش للسيطرة على اليمن ما هو معروف ومشهور . وعلى اثر الاحداث التي وقعت بين الفرس والروم والاحباش واليمن ازدهر الطريق التجاري البري من اليمن الى الشام عبر الحجاز ، وأضحى هذا الطريق الشريان الرئيسي للتجارة بسبب وصله بين اكبر سوقين استهلاكيين في المنطقة ، اليمن وما يتصل بها من بلاد ، وسورية وما يتصل بها من بلاد . وهذا التحول حول مكة من محطة صغيرة يقدم اهلها الخدمات للحجاج الى امبراطورية تجارية يطلب ودها الملوك والامراء . ويذكر ابن حوقل (٨٢) ان لهذا الطريق فرعين أحدهما يمر بتهامة والآخر عبر البوادي قبل ان يلتقيا في مكة . وكان هذا الطريق يمر بأكثر من عشرين محطة منها : تبالة وبيشة وجرش وصعدة (مدينة الجلود) وأخيرا صنعاء (٨٤) .

وأما الطريق الى الشمال من مكة فيتكون من مرحلتين أساسيتين : الاولى ، حجازية تنتهي عند يثرب التي تأتي بعد مكة من حيث الأهمية الاقتصادية في الحجاز . اما المرحلة الثانية فتمتد من يثرب الى بصرى ، وفيه أيضا محطات تختلف في المسافات الفاصلة فيما بينها . وهناك طريق ثالث هام يصل مكة بالخليج العربي يقطع اليمامة ويصل الى موانئ الخليج ، والبحرين وجرها . ومن المراكز المهمة في هذا الطريق دومة الجندل التي كانت تعتبر عقدة مواصلات المنطقة الشرقية التي تتلقى بضائع الهند والبلاد الشرقية . وكان يقام بدومة الجندل سوق موسمية تعرض فيها منتوجات البلدان المختلفة ، المحلية والاجنبية . ومن السلع المحلية المشهورة في سوق دومة الجندل : اللبان والمر واللادن والعقيق من اليمن ، والطور والذهب والعاج وخشب الانبوس والرقيق من افريقيا الشرقية ، والقمح في بعض الاحيان من مصر ومن اليمامة . وكانت هذه البضائع تصل مكة أولا ثم يقوم التجار بتسويق جزء منها في الاسواق العربية (٨٥) .

ومن الشام كان التجار يجلبون الى مكة زيت الزيتون والقمح (من حوران

(والبقاء) والخمور والجواري والمواد المصنعة كالاسلحة والمنسوجات (٨٦) .

وكانت المنتجات المصرية تصل مكة عن طريق ميناء الجار . وقد أطلق المقدسي على هذا الميناء « خزانة مصر » (٨٧) . وكان يصل إلى جزيرة العرب من فارس المسك والعنبر والجواهر (٨٨) . ومما ساهم في ازدهار التجارة المكية التعاون بين مكة والطائف التي كان بها عدد من الصناعات كدباغة الجلود والاسلحة والآلات الزراعية وأدوات الصيد (٨٩) . وكان العود الهندي والمسك والعنبر والقرفة (سيلان) من الاطياب المفضلة واستمرت كذلك في الاسلام ، فقد ذكر عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله « عليكم بالعود الهندي » (٩٠) كما ورد المسك في القرآن في سورة المطففين ، وختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون (٩١) .

يذكر محمد حميد الله نقلا عن ابن الكلبي أن القرشيين كانت لهم رحلتان في كل عام ، واحدة إلى اليمن في الشتاء ، وأخرى إلى سورية في الصيف ، وشيئا فشيئا بدأ لهم ذلك شاقا . ويتساءل حميد الله ، هل كان ذلك لأن القرشيين أصبحوا أغنياء أم لأن سفراءهم أصبحوا كبارا في السن ؟! وحينذاك بدأ سكان تبالة وجرش . وكذلك سكان بعض المناطق المحاذية لليمن يتولون نقل بضائعهم حتى مكة ، فكان تجار البر يحملون بضائعهم حتى المحصب جنوب مكة ، والتجار البحريون يحملون بضائعهم حتى جدة (٩٢) . إن ما أورده حميد الله يتعارض مع استمرار الرحلات القرشية ، ويكفي أن نذكر أن معركة بدر كان من أسبابها اعتراض المسلمين واحدة من هذه الرحلات ، كما أنه من المعروف أن الغرباء كانوا لا ينقطعون عن دخول مكة تجارا أو وكلاء تجار ، ثم إن شهرة قريش بالرحلتين لا تعني أنهم لم يكونوا يرحلون إلا رحلتين ، إذ كان تجارهم يضربون في الآفاق معظم أيام السنة (٩٣) . كان من نتائج تزايد الثروة لدى تجار مكة عنايتهم بفقراء المدينة حتى أصبح البحث عن الفقراء واشراكمهم في المشاريع التجارية جزءا لا يتجزأ من النشاط الاقتصادي العام . وهذا ما جعل بعض المفسرين يرى أن « لايلاف قريش » تعني تراحم قريش وتواصلهم (٩٤) . وقد بدأ هذه العملية الجريئة هاشم بن عبد مناف ، ولعله أراد تمتين أوامر المجتمع المكي بتأليف قلوبهم وجعلهم جميعا شركاء في صنع المستقبل لتنجح سياسته في لايلاف القبائل . وقد أشار الشاعر مطرود بن كعب الخزاعي (٩٥) لهذه الصفة عند أبناء عبد مناف فذكرها بقوله :

والخالطين فقيرهم بفنيهم حتى يكون فقيرهم كالكافي

تذكر بعض المصادر أن ظاهرة اجتماعية سلبية ظهرت في مكة قبل الايلاف بفعل

الفقر والجوع عرفت باسم « الاعتقاد » ويعنى انه اذا اصاب احدى العائلات المكية صيق وجوع ، يخرج أفراد هذه العائلة الى الصحراء ويضربون على انفسهم الاخبية بالتناوب حتى يموتوا دون أن يعلم بهم الناس (٩٦) . واستمرت هذه الظاهرة حتى زمن هاشم بن عبد مناف ، الذي أوضح لقومه سوء هذه العادة وعواقبها الخطيرة على المجتمع المكي ، وبين أن الاعتقاد لا يتناسب مع شرف قريش وسمعتها الطيبة بين العرب ، وطلب الى قومه قطعها بالتوسيع على المحتاجين واشراكهم بمشاريع التجارة حتى يصبح الفقير غنيا (٩٧) كما هو واضح من شعر مطرود الخزاعي السالف الذكر (٩٨) .

يذكر الجاحظ أن قريش أخصبت بفعل الأيلاف وآتاها خير الشام واليمن والحبشة ، فحسنت حالها وطاب عيشها (٩٩) . وأبلغ تعبير عن الوضع الجديد الذي حققه الأيلاف لأهل مكة قول الله سبحانه وتعالى : « أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » (١٠٠) يعني الضيق الذي كان به أهل مكة قبل أن يسكن لهم هاشم الأيلاف ، ويقصد بالخوف ذلك الذي كان يحق بتجارهم بين العرب خشية العدوان عليهم ، ومصدق ذلك قوله تعالى : « تخافون أن يتخطفكم الناس » (١٠١) .

لقد ذهب كستر الى أن فكرة مخالطة الفقير على الفنى كانت المثل الأعلى في المجتمع الجاهلي وقد قرررها الشعر ، وهي تقليد هام في المثل الجاهلية انعكس في العناية بالاسر المحتاجة ، على أن اعتناق الاسلام اعتبر انحرافا عن هذا المثل (١٠٢) .

ان ما ذهب اليه كستر هو صحيح باستثناء ما جاء في العبارة الاخيرة حيث أورد رواية فيها لوم لأحد أبناء الاغنياء الطمعين لاعتناقه الاسلام وتتهمه بأنه هدم ما بنى أبوه باتباعه محمد (١٠٣) . وما ذهب اليه كستر يخالف المعروف والمألوف في المجتمع العربي إبان الدعوة الاسلامية ، فقد جاءت الدعوة لصالح الفقراء والمحرومين ونحن في غنى عن إيراد الآيات والأحاديث في هذا المعنى ، كما أن ما أخذ على محمد صلى الله عليه وسلم في حينه ، أن أتباعه من الفقراء والموالي والعبيد . ولعل كستر لم يوفق في فهم العبارة السالفة الذكر والمراد بها لوم نعيم بن عبد الله باعتناقه الاسلام وخروجه على جماعة قومه الذين يتزعمهم والده ويجمعهم حوله ، وكان التقليد الجاهلي يحكم بأن يخلف الابن أباه في مآثر الزعامة وأطعام الطعام لا الخروج عليه .

وكما قرر المجتمع المكي محاربة الفقر فقد قرر أيضا محاربة الظلم . ومن أجل هذه الغاية كان حلف الفضول ، حيث تعاقدت خمسة بطون قرشية أن لا تدع مظلوما بمكة الا وتنصره . وكان مما تعاقدوا عليه أيضا مواساة أهل الفاقة ممن ورد مكة بفضول أموالهم (١٠٤) . ومن الواضح أن حلف الفضول جاء بعد ملاحظة في صفقة

تجارية بمكة ، وهو بأهدافه وغاياته الاقتصادية يقع ضمن سياسة الإيلاف .

وكانت الشراكة المكية تتم بالتراضي ، وغالبا ما تقسم الأرباح مناصفة ، أي أن صاحب المال يتقاضى نصف الأرباح والتاجر الذي يسافر بالأموال يأخذ النصف . وكان الكل منهمكا بزيادة ثروته (١٠٥) . وجلبت هذه الحركة معها أعمال الصيرفة ، وتكدست في مكة العملات المتداولة ، ومهر الصيارفة بمعرفة أنواعها وأوزانها وأصالتها وزيفها ، والأماكن التي ضربت بها (١٠٦) . وأغلب العملات المستعملة كانت الدينار الرومي والدرهم الفارسي والحميري (١٠٧) . وكذلك مهر القرشيون بالأعمال التجارية ، وعرفوا أساليب الوساطة والمضاربة والسمسرة والمقايضة والتأمين ، وتداينوا بالربا الفاحش ، ونجد صدى ذلك في آيات من القرآن الكريم حملت على جشع التجار المكيين وذمت الربا والتعامل به ، ثم حرم الإسلام الربا واعتبره من الكبائر (١٠٨) .

وكان من أثر التجارة على المجتمع المكي شيوع الفنى والترف والاسراف . فقد ذكرت الروايات أن عبد الله بن جدعان مثلا كان يشرب بكأس من الذهب ويأكل في صحاف الفضة ، كما ذكر الكثير عن رؤوس أموال التجار ، من أمثال عبد الرحمن ابن عوف ، وعثمان بن عفان ، وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص ، وغيرهم كثير (١٠٩) .

ويستفاد من القرآن أن الترف قد شاع في الأوساط المكية وأصبح هم الناس متاع الدنيا وشهواتها . ومصدق ذلك قوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » (١١٠) .

وعلى الرغم مما أخذ على بعض المكيين من اسراف وترف وقسوة في التعامل مع المسلمين الأوائل فإن الإجراءات المكية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية السابقة للإسلام حققت تكوين قاعدة متينة للانطلاقة المكية التي حصلت في عهد هاشم بن عبد مناف ، واستمرت في تعاضدها في ميادين المعرفة والاجتماع والاقتصاد والسياسة ، وتوج هذا التعاضد بانفجار الإسلام من مكة ليعم ضياؤه أنحاء المعمورة على أيدي رجالات مكة .

الهوامش :

(١) ج كستر ، الحيرة ومكة ، وصلتهما بالقبائل العربية ، ترجمة الدكتور يحيى الجبوري ، بغداد ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .

واصل هذا الكتاب بحثان :

(a) Al-Hira, Same note on its relations with Arabia, Arabica V. 15 (1968) Leiden.

(b) Macca and Tamim, Aspects of their relations, Journal of the Economic and Social.History of Orient, V. 8 (1963). Leiden.

(2) H. Lammens, La Mecque a la veille de l'Hegire,(extract from melange Univ . St. Joseph, Beirut, ix ., Fasc.

— H. Lammens, Enc. of Islam « Macca ».

(3) Muhammad Hamidullah, AL - Ilaf, ou les Rapports Economiques - Diplomatiques de la Mecque pré-islamique,(extrait des melanges Louis Massignon, Inst. Français de Damas, 1957.

(٤) ظافر القاسمي ، الايلاف أو المعونات غير المشروطة ، مجلة الجمع العربي - دمشق مجلد ٣٤ ، نيسان ١٩٥٩ ، ص ٢٤٣ - ٢٥٥ . و ابراهيم بيضون ، الايلاف القرشي ، بحث في التكوين الاقتصادي لكفة قبل الاسلام ، مجلة تاريخ العرب والعالم ، عدد ٤٢ نيسان ١٩٨٢ ، ص ٢٣ - ٣٥ . وعدد ٤٣ أيار ١٩٨٢ ، ص ٢٣ - ٣٣ .

(٥) القرشي ، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن علي الجوزي البغدادي (٥٠٨ هـ - ٥٩٧ هـ) زاد المسير في علم التفسير ، المكتب الاسلامي للطباعة والنشر ، ط ١ ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م تفسير « سورة قریش » ص ٢٤١ وما بعدها .

(٦) الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) جامع البيان عن تاويل القرآن المشهور باسم تفسير الطبري ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر ، ١٩٧/٣ . وما بعدها .

(٧) ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) لسان العرب ، دار صادر بيروت مجلد ٩ ، مادة « الف » .

(٨) ن . م

(٩) انظر تفسير « سورة قریش » في تفاسير : الطبري ، وابن كثير ، والبغوي ، والصابوني ، وسيد قطب . وبقية التفاسير لا تخرج عن ذلك .

(١٠) انظر الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، ٢٥٢/٢ . والزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر ٤٦٧ - ٥٣٨ هـ ، الكشف عن حقائق التنزيل وعبون الاقاويل ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ٢٣٥/٣ .

- (١١) انظر بن حبيب ، أبو جعفر محمد (ت ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م) المحبر رواية أبي سعيد بن الحسين السكري ، باعتناء الدكتوراة ايلزه ليختن شتير ، منشورات الكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ص ١٦٢ . وقارن حميد الله ، الايلاف ص ٢٩٩ .
- (١٢) تفسير الطبري « رواية ابن عباس » تفسير سورة قريش ١٩٧/٢ وما بعدها .
- (١٣) ابراهيم مصطفى ، أحمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد علي النجار ، أشرف علي طبعة عبد اسلام هارون ، المعجم الوسيط ، المكتبة العلمية ، طهران ، مادة « ألف » .
- (١٤) انظر H. Birkeland, THE LORD GUIDETH, Oslo, 1956, P. 106-110. وقارن كستر م . ج « الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية » ترجمة يحيى الجبوري ، جامعة بغداد ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م ، ص ٤٧ - ٤٨ . وقد اعتمد بيركلاند فيما ذهب اليه على رواية أبي حيان في البحر المحيط ، تفسير سورة قريش ٥١٥/٨ .
- (١٥) انظر تاريخ الطبري ٢٥٢/٢ .
- (١٦) ابن هشام أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري ، (ت ٢١٣ ، ٢١٨ هـ) السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وزميله ط ٢ ، دار المعارف بمصر ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ ، ١١٢/١ .
- (١٧) انظر العيني ، شرح البخاري ص ٣٦٥ . يعلق حميد الله على خير زيارة الاسكندر لمكة فيقول : « واذا كان المقصود به الاسكندر فان المصادر اليونانية لا تفيدنا في ذلك ، على الرغم من أن سفره من مصر الى الهند لا يلقي الامكانية النظرية لزيارة هذا المكان ، فهو ملك وثني ذو اعتقادات نظرية » الايلاف ص ٢٩٤ . وانظر أيضا الازرقى ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد ، اخبار مكة المشرفة ، رواية أبي اسحق بن أحمد بن اسحق بن نافع الخزاعي نسخة مصورة عن الطبعة الهندية ١٢٧٥ هـ ، ٨٤/١ . والحموي ، الامام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ، معجم البلدان ، دار الكتاب العربي ، بيروت مادة « مكة » . وابن عبد ربه ، أحمد بن محمد ت ٣٢٨ هـ العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر « رواية العتبي ٥٩/٢ - ٦٠ » .
- (١٨) ابن هشام ١٣٦/١ ، ويذكر أن هذا الشعر لحذافة بن جمح ، انظر : (١) من المصدر السابق.
- (١٩) انظر اللسان مادة « حمس » وابن سعد ، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري ت ٢٣٣ هـ ، الطبقات الكبرى ، دار بيروت - دار صادر ، بيروت ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م ، ٧٢/١ . وانظر عن الحمس : ابن هشام ١٩٩/١ وما بعدها ، والازرقى ١١٩/١ - ١٢٣ ، والمحبر ١٧٨ وما بعدها والجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ت ٢٢٥ هـ / ٨٦٩ م ، كتاب البلدان ، نشر وتعليق صالح العلي ، مستل من مجلة كلية الآداب - بغداد ١٩٧٠ م ص ٤٧٢ وما بعدها ، والقرواني ، أبو علي الحسن بن رشيق (٣٩٠ - ٤٥٦ هـ) ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٤ دار الجيل - بيروت ١٩٧٢ م ، ١٩٧/٢ وما بعدها الزروقي ، أحمد بن محمد بن الحسن ، الامكنة والبقاع ، حيدر آباد ١٣٢٢ هـ ، ١٦٦/٢ وما بعدها ، السهيلي ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (٥٠٨ - ٥٨١ هـ) ١١١٤ - ١١٨٥ م ، الروض الانف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ، ومعه السيرة النبوية لابن هشام ، بغاية : طه عبد الرؤوف سعد « مكتبة الكليات الازهرية ، ٢٢٩/١ والاغفاني ، سعيد ، أسواق العرب

في الجاهلية والاسلام ، دار الفكر ، ط ٣ بيروت ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م ص ٧٥ وما بعدها ، وكستر ، ص ٦٢ وما بعدها .

(٢٠) انظر الاصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين ، ت ٣٥٦ هـ / ١٩٧٦ م ، كتاب الاغانى ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، ١٥/١٩ وما بعدها ، وكستر ٦٣ - ٦٤ .

(٢١) ن ٢٠

(٢٢) انظر حول ذلك : ابن حبيب ، المنق في أخبار قريش - تحقيق خورشيد أحمد فاروق طبعة الهند ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م ص ٣١ - ٣٢ . اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح الاخباري ت ٢٨٤ هـ تاريخ اليعقوبي ، تحقيق محمد صادق بحر العلوم ، المكتبة الحيدرية ، النجف ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م ٢١٣/١ . الجاحظ ، البلدان ، ص ٤٧ . الأزرقى ١٠٤/١ ، ١٠٧ . تفسير الطبري ١٩٩/٣ - ٢٠٠ « تفسير سورة قريش » . القالي ، أبو علي اسماعيل بن القاسم ، ذيل الامالي والنوادر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ٢٠٤ . والسهيلى ٢٢٥/١ . حميد الله ص ٢٩٧ ، ٣٠٧ . م . وات ، محمد في مكة ، تعريب شعبان بركات ، منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت ص ١٨ . الافغاني ص ٧٥ . وأحمد إبراهيم الشريف ، الندوة الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية - الرياض .

(٢٣) لامانس ، ص ٤٣٨ .

(٢٤) ن ٢٠

(٢٥) القالي ، ذيل الامالي ص ٢٠٤ .

(٢٦) بلبايف ، العرب والاسلام والخلافة العربية ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢٧) الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري ٣٥٠ - ٤٢٩ هـ ثمار القلوب في المصاف والمنسوب ، القاهرة ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م ص ٨٩ - ٩٠ .

(٢٨) ن.م ص ٨٩ وحول هاشم وأخذه الايلاف ، انظر : ابن هشام ١٣٦/١ ، ابن سعد ٧٥/١ - ٧٦ ، والأزرقى ٦٧/١ وما بعدها والسهيلى ١٦١/١ ، والطبري ، تاريخ ٢٥٣/٢ ، وابن أبي الحديد ، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله ت ٦٥٦ هـ ، شرح منهج البلاغة ، دار الفكر - بيروت ١٩٥٦ م ، ٤٥٨/٣ .

(٢٩) انظر ابن هشام ١٣٦/١ . والبلاذري ، أحمد بن يحيى ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م انساب الاشراف ، ج تحقيق محمد حميد الله ، دار المعارف بمصر ١٩٥٦ م . ٥٩/١ . والمسعودي ، أبو الحسن علي ابن الحسين ت ٢٤٦ هـ ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٤ مطبعة السعادة بمصر ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م ، ٥٩/٢ - ٦٠ . والقرطبي ، أبو عبد الله محمد ابن أحمد الانصاري ، الجامع لأحكام القرآن « تفسير القرطبي » ط ١ ، ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م ، ٢٠٤/٢ ، وتفسير الزمخشري ٢٣٥/٢ ، والقالي ، ذيل الامالي ٢٠٤-٢٠٥ ، والمنق في أخبار قريش ص ٣١ وما بعدها ، والمحبر ١٦٢ .

(٣٠) ذيل الامالي ص ٢٠٤ .

(٣١) انظر ظافر القاسمي ، الايلاف ، ص ٢٥٥ .

- (٢٢) الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، جمع حسن السندوبي ص ٧١ ، وثمار القلوب ص ٨٩ ، وذيل الامالي ٢٠٤ .
- (٢٣) سورة القصص ، آية ٥٧ . وانظر حول ذلك تفسير القرطبي ٢٠٩/٢٠ « تفسير سورة قريش » .
- (٢٤) انظر حول اليهود والايلاف لابناء عبد مناف ، المحبر ص ١٦٢ ، والمنق ٣١ - ٤٠ ، وذيل الامالي ص ٢٠٤ وما بعدها ، والبلادري ، انساب ٥٩/١ ، واليعقوبي ، تاريخ ١ / ٢١٣ .
- (٢٥) انساب ٥٩/١ .
- (٢٦) اللسان « عصم » .
- (٢٧) تاريخ ٢٥٢/٢ .
- (٢٨) اللسان « حبل » .
- (٢٩) اللسان « حلف » ، وثق .
- (٤٠) انظر الجاحظ ، البلدان ص ٤٧٢ ، وابن سعد ٧٥/١ .
- (٤١) البلدان ص ٤٦٦ .
- (٤٢) الاغانى ٦٤/١ ، وجواد علي ، الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ١٩٦٨ ، ٢٩٣/٧ .
- (٤٣) ن . م .
- (٤٤) ابن يكار ، أبو عبد الله الزبير (١٧٢ - ٢٥٦ هـ) جهمرة نسب فريش وأخبارها ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مكتبة العروبة ، القاهرة ١٣٨١ هـ ، ص ٣٦٧ رقم ٦٤٤ . والكندي ، أبو عمر محمد بن يوسف ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، بعناية رفرن كست ، مطبعة الإباء اليسوعية ، بيروت ١٩٠٨ م ، ص ٦ - ٧ .
- (٤٥) الطبقات الكبرى ٧٨/١ .
- (٤٦) الجاحظ ، الرسائل ، جمع السندوبي - من كتاب فضل هاشم ص ٧٠ .
- (٤٧) ابن سعيد الأندلسي ، أبو الحسن علي بن موسى ٦١٠ - ٦٨٥ هـ ، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، تحقيق نصرت عبد الرحمن ، عمان ١٩٨٢ « رواية السيهقي » ص ٣٢٧ . وانظر صالح درادكة ، الردافه ، ملحق (١) .
- (٤٨) حول مقابلة عبد المطلب لابرهة الحبشي، ومولد الرسول الكريم، انظر ابن هشام ٩٤/١، والبلادري، انساب ٦٧/١ ، والطبري ، تاريخ ١٣٣/٢ - ١٣٤ .
- (٤٩) انظر بيفزون « المقالة الثانية » ص ٢٨ .
- (٥٠) ابن هشام ١٣٦/١ - ١٣٩ . المحبر . مروج الذهب ٩٠/٢ . تاريخ الطبري ٢٥٣/٢ .
- (٥١) م . وات ص ٣٣ .
- (٥٢) البخاري ، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل ، صحيح البخاري ، دار الجبل ، بيروت ٥٩/٥ . ابن حجر المصقلاني ، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م « الاصابة في تمييز الصحابة » دار احياء التراث العربي ، بيروت ١٣٢٨ هـ ، ٤ / ٦٢ رقم (٣٨٤) .

- (٥٣) ابن سعد ٣ / ١٢٦ .
- (٥٤) سورة النور ، الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ ، وانظر تفسير الطبري للآيتين السابقتين .
- (٥٥) انظر G. Levidelle vida, Tamim, E. I. (1) 1964. vol.II,P . 643 - 644.
- (٥٦) انظر صالح درادكة ، الردافة ص ٢٢ وما بعدها .
- (٥٧) أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الاول والثاني للهجرة ، ط ١ ، دار الفكر العربي ، مصر ١٩٦٨ ص ١٠ . وكستر ص ٥٨ .
- (٥٨) انظر الوافدي ، محمد بن عمر ت ٢٠٧ هـ كتاب المغازي ، تحقيق مارسدن جونز مصورة عن طبعة اكسفورد ١٩٦٦ ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ١/٤٠٢ - ٤٠٣ . ابن سعد ٢/٦٢ - ٦٣ ، المحبر ١١٤ « غزوة دومة الجندل » وياقوت « دومة الجندل » . اتخذت كلب ضمنها «ود» في دومة الجندل . انظر أبي الكلب ، أبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى ، كتاب الاصنام ، تحقيق أحمد زكي ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٢٤٣ هـ - ١٩٢٤م ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٢٨٤ هـ - ١٩٦٥ ص ١٠ .
- (٥٩) موقع قريب من الكوفة من اجل مرابع العرب - ياقوت - حزن يربوع .
- (٦٠) المزروقي ، الامكنة ٢/١٦٢ ، كستر ٥٨ .
- ودومة الجندل حصن قرب جبلي طيء بين تيماء ووادي القرى ، وهو حصن اكيدر الملك الكندي ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد غراه في السنة الخامسة للهجرة كما وجه اليه خالد بن الوليد من تبوك سنة ٩ هـ . ياقوت « دومة الجندل » .
- (٦١) كستر ص ٧٦ .
- (٦٢) أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز ص ٢٢ . وانظر الاصفهاني ، الحسن بن عبد الله ت ٣١ هـ ، بلاد العرب ، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي ، دار اليمامة - الرياض ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ . ص ٦١ « الحليفان أسد وطيء » .
- (٦٣) القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي (٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) - نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، مصر ١/٣٤٥ .
- (٦٤) مر الظهران : الظهران واد قرب مكة . وعنده قرية يقال لها « مر » ياقوت « مر الظهران » .
- (٦٥) أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز ص ١٣ .
- (٦٦) ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد ٢٨٤ - ٤٥٦ هـ جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ١٣٩١ - ١٩٧١ م . ص ٤١٩ - ٤٢٠ . وابن دريد ، أبو بكر محمد ابن الحسن ٢٢٣ - ٣٢١ هـ ، الاشتقاق ، تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة السند المحمدية ، ١٢٧٨ - ١٩٥٨ م ، ص ٣٢٠ . أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز ، ص ١٠ .
- (٦٧) من بين المحاولات الفارسية السيطرة على سواحل الخليج العربي ، ثم سيطروا على اليمن ومنها محاولة السيطرة على مكة عن طريق نشر الزندقة في عهد قباذ والهارث بن عمرو الكندي ثم حادثة البراض . انظر ابن هشام ١/١٨٤ وما بعدها ، واليعقوبي ، تاريخ ٢/١٢ ، ونشوة الطرب ص ٣٢٧ .

- (٦٨) استمرت محاولات بيزنطة منذ حملة ايليوس غالوس ٢٤ ق.م على اليمن الى تنصير وتنصيب عثمان ابن الحويرث القرشي ملكا على مكة . انظر ابن هشام ٢٢٤/١ « عثمان بن الحويرث » . والزبير ، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله ١٥٦ - ٢٣٦ هـ ، كتاب نسب قريش بعناية ١ . ليفي بروفنسال ط ٢ ، دار المعارف بمصر ١٩٧٦ م ص ٢٠٩ - ٢١٠ ، والزبير بن بكار ص ٤٢٥ ، ونشوة الطرب ص ٣٥٠ .
- (٦٩) الشريف ، دور الحجاز ص ١٢ .
- (٧٠) ن . م .
- (٧١) ن . م .
- (٧٢) انظر البلاذري ، انساب ٣٩/١ - ٤٠ .
- (٧٣) اليقوي ، البلدان . مطبوعات المطبعة الحيدرية ، النجف ، ص ٧٥ .
- (٧٤) ن . م .
- (٧٥) الاشتقاق ص ٢٨٢ ، ابن سعد ٤٧/٢ ، ٧٠ ، وابن حزم ٢٦٣ .
- (٧٦) ابن الاثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم ت ٦٣٠ هـ ، الكامل في التاريخ المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٢٨٤ هـ ، ٢٤١/١ ، والشريف ، دور الحجاز ص ٤٥ . وابن كثير ، أبو الفداء الدمشقي ت ٧٧٤ هـ ، والبداءة والنهاية ، مكتبة المعارف - بيروت - ومكتبة النصر - الرياض ، ط ١ ١٩٦٦ ، ٤٥/٢ .
- (٧٧) جواد علي ٣٠٦/٧ وما بعدها .
- (٧٨) كستر ص ٨٩ - ٩٣ .
- (٧٩) جواد علي ٣٠٦/٧ .
- (٨٠) انظر ابن هشام ٧٠/١ ، والهمداني ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب ت ٣٥٠ - ٣٦٠ هـ ، كتاب الاكلیل ، ج ٨ تحقيق محمد بن علي الاكوع ، مطبعة الكاتب العربي دمشق ١٢٩٩ - ١٩٧٩ م ، ٢٢٩/٨ .
- (٨١) بيضون ، المقالة الاولى ص ٢٣ .
- (٨٢) ن . م .
- (٨٣) ابن حوقل ، أبو القاسم النصبي ، صورة الارض ، منشورات مكتبة الحياة - بيروت . ص ٤٦ - ٤٧ .
- (٨٤) ن . م وانظر اليقوي ، البلدان ٣١٧ وما بعدها (ط . ليدن) وابن خرداذبة ، المالك والممالك ١٣٤ - ١٣٦ ، والاصطخري ، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري ، المعروف بالكرخي ، كتاب مالك الممالك ، نشر دي جوج ، ١٩٧٢ م . ص ٢٣ وما بعدها .
- (٨٥) انظر ابن شبه ، أبو زيد عمر بن شبه الخيري البصري ١٧٣ - ٢٦٢ هـ ، تاريخ المدينة ط ٢ تحقيق فهم شلتوت ، دار الاصفهاني للطباعة بجدة ، على نفقة السيد حبيب محمود محمد ١٤٠٢ هـ ، ٤٣٥/٢ « ذكر أن اليمامة كانت تزود مكة بالقمح » . وانظر جواد علي ٢٢٠/١ .
- (٨٦) اليقوي ، تاريخ ٢٧٠/١ .
- (٨٧) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، تحقيق دي جوج ، بريل ١٩٠٦ ص ٩٧ . بيضون المقالة الثانية ص ٢٦ .
- (٨٨) الافغاني أسواق العرب ص ٢٥١ .

- (٨٩) لامانس الطائف ص ١١٩ ، ويضون المقالة الثانية ص ٢٦ .
- (٩٠) البخاري ١٦١/٧ * جواد علي ٢٢٧/٧ .
- (٩١) الآية ٢٦ . وحول السلع التجارية انظر الجاحظ ، التبصرة بالتجارة ص ٣٤ وما بعدها واليعقوبي ، بلدان ص ٥١ (ط . النجف) . ثمار القلوب ص ٤٢٣ . جواد علي ٢٢٧/٧ وما بعدها .
- (٩٢) الايلاف ص ٣٠٠ .
- (٩٣) مما يشير الى أن الرحلات التجارية كانت لا تنقطع . فقد خرج المسلمون بعد هجرتهم عدة مرات في سنة واحدة لاعتراض القوافل التجارية بين الشام ومكة . انظر مفازي الواقدي ٩/١ وما بعدها ، وابن هشام ٥٩٠/١ وما بعدها ، وابن سعد ٥/٢ وما بعدها وابراهيم شعوط ، اباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ص ٢٤ .
- (٩٤) انظر تفسير سورة قريش عند السيوطي ، الدر المنثور ٣٩٧/٦ .
- (٩٥) انظر ذلك في البلاذري ، انساب ٦٠/١ ، الازرقى ٦٨/١ ، والديار بكري ، حسين بن محمد ابن الحسين ، الخميس في احوال النفس نفيس ، المطبعة الوهبية ، مصر ١٢٨٣ هـ ، ١٥٦/١ .
- (٩٦) انظر تفسير القرطبي ٢٠٤/٢ - ٢٠٥ ، السيوطي ، جلال الدين ت ٩١١ هـ ، الدر المنثور في التفسير المأثور ، دار المعرفة ، ١٣٧٧ هـ ، ٣٩٧/٦ ، الشامي ، محمد بن يوسف الصالحي ت ٩٤١ هـ ، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، القاهرة ١٩٧٢ م ، ٢١٧/١ ، كستر ص ٥٠ .
- (٩٧) ن . م .
- (٩٨) ن . م .
- (٩٩) الجاحظ ، الرسائل ، جمع السندوبي - فضل هاشم - ص ٧٠-٧١ ، وانظر ثمار القلوب ص ٩٠ .
- (١٠٠) سورة قريش آية ٤ .
- (١٠١) سورة الانفال ، آية ٢٦ .
- (١٠٢) كستر ٥١ - ٥٢ .
- (١٠٣) انظر ابن هشام ١٤١/١ ، وكستر ٥٢ .
- (١٠٤) لامانس ٤٣٩ .
- (١٠٥) ن . م .
- (١٠٦) ن * م ٤٤١ .
- (١٠٧) ن . م ٤٤٠ .
- (١٠٨) انظر على سبيل المثال ، سورة البقرة ، الايات : ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ . وسورة آل عمران ، آية ١٣ ، وسورة النساء ١٦١ ، وسورة الروم ٣٩ .
- (١٠٩) انظر مروج الذهب ٢٤١/٢ ، وانظر ترجمة عبد الله بن جدعان في نشوة الطرب ٢٥٣/١-٣٥٥ ، وفي الاوسى ، محمود شكري ، بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ، تحقيق محمد بهجة الاثري ، مصر ١٣٤٢ هـ ٨٧/١ وما بعدها ، وتراجم الصحابة الآخرين في ابن سعد ٥٣/٣ ، ١٠٠/٣ ، ٢١٤/٣ - ٢١٤/٣ .
- (١١٠) آل عمران ، آية ١٤ .